من رحلات الحجّ الإيرانيّة (٣)

مقتطفات من يوميات مكة لكريمة فرهاد ميرزا

هذه هي إحدىٰ يوميات السفر إلىٰ مكة، التي كُتبت في العهد القاجاري، وكاتبة هذه اليوميات هي كريمة فرهاد ميرزا (صاحب إحدىٰ يوميات الحج هو الآخر والتي طُبعت مراراً). وحسام السلطنة هو عَمُّ الكاتبة، وهو كاتب اليوميات المعروفة باسم «سفرنامۀ مكه» والذي طبع علىٰ شكل كتاب مستقل. وجدير بالذكر أنّ حسام السلطنة كان قد حضر حج العام نفسه، الذي تشرفت به كاتبة هذه اليوميات بالحج ودوّنت هذا الكتاب، وكتب هو الآخر يومياته في السنة نفسها. وقد أورد الكاتبان ذكراً عن بعضهما الآخر في يومياتهما.

وأمّا ما يخصّ كريمة فرهاد ميرزا فلا نعلم عنها سوىٰ أنّها كانت زوجة وزير العسكر، وقد تكدّر مزاجها كثيراً عند سماعها بالمرض الشديد الذي أصاب وزير العسكر في أواخر سفرها.

وقد تعرضت هذه اليوميات كغيرها من اليوميات المؤلَّفة، في العهد القاجاري، إلىٰ بيان منازل الطريق إلى الحج والمشاكل والعقبات، التي يواجهها

المسافرون. وكانت القوافل إبّان ذلك الوقت قلّما تخلو من مواجهة المصاعب والمشاكل، وخصوصاً عند تعرّضها للهجمات، التي كان يقوم بها الأعراب وقطاعُ الطرق. وقد أطنب المؤلف في وصف تلك العقبات والمشاكل.

لقد سعىٰ رجال البلاط في العهد القاجاري بجدّ إلى التعرف على الأدب والثقافة والتاريخ، وهو أمرٌ شمل عدداً محدوداً من نساء الطبقة العُليا لتلك العوائل.

والكتاب الذي بين أيدينا هو خير شاهد علىٰ مستوى الثقافة الذي تطلّعت به بعض نساء البلاط آنذاك، وتأتي أهمية هذا الكتاب إضافة إلىٰ ما ذُكر في كونه تأليفاً لامرأة، من طبقة الأشراف، حيث يعكس انطباعاتها بمهارة، وهو ما يميّزه عن باقي اليوميات المكتوبة في الفترة نفسها. وهذه اليوميات، التي تعود إلى العهد القاجاري هي الثانية بعد يوميات السفر المنظومة في العهد الصفوي من قبل امرأة مثقّفة، وقد طبعت ونشرت.

وقد تمّت تهيئة هذا المتن طبقاً لنسخة كانت معروفة لدينا، هي نسخة محفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي رقم ٢ تحت رقم (١٢٢٥) (الفهرست، ج ٢، ص ١٧٢).

* * *

بداية الرحلة

هذه هي يوميات الرحلة إلىٰ بيت الله الحرام، التي اكتبها بمعونة الله القادر المتعال مشروطة بسلامة مزاجنا.

يوم الثلاثاء ٢٤ / شهر رمضان المبارك / ١٢٩٧هـ، لأربع ساعات بقين للغروب. تحركنا بالطالع الحسن من دار الخلافة، ...

بداية السفر إلى الحج(1)

ليلة السبت، الثالث من شهر ذي القعدة الحرام، جلستُ حتى الساعة السابعة مشغولة بالكتابة والتوديع وأردّد مع نفسي:

إلهي آمنّي حتىٰ أرىٰ ثانيةً وجه الأحبة وعيون المحبّين.

وبعد كتابة الرسائل أعطيت الظروف إلى الساعي، ثم نمتُ بعض الوقت، وبعدها سمعتُ صوت الطّبل.

الحقّ أنّ روحي تكاد تخرج من جسدي اليوم. فقمتُ وتوضأتُ وأدّيت فريضة الصبح. فقيل: بسم الله، اركبوا. فجاء من كربلاء واحدٌ أو اثنان من المودّعين. إنَّ التحرّك اليوم أشدّ وطأة من تحركنا من طهران. وبعد قولنا بسم الله، استودعنا الجميع بحفظ الله! وتحركنا من الحضيرة من هناك ولساعتين بقيتا للغروب نزلنا، وكان الهواء حارّاً والسير غير طبيعي. عسى الله أن يتفضّل علينا بالفرحة والسلامة في مسيرنا خلال هذا السّفر الطويل.

يوم السبت، الثالث من شهر ذي القعدة الحرام، كان المنزل في «خان شور». فقضينا الليلة هناك، وعند السّحر دَقَّ الطّبل، وبعد أداء صلاة يوم الأحد الرابع، من الشهر نفسه، ركبنا وتابعنا المسير. وفي أثناء الطريق كانت هناك قلعة وعين ماء تُعرف بـ(عين سعيد). فغرس أمير الحاج عبد الرحمن هناك لواءً لأجل أخذ الماء، ويبدو أنّه لا يمكن الحصول على الماء حتى اليوم التالي. فأقمنا في الخيام، وقد استعذت بالله واستعنت به على صعوبات الطريق وشدة حرّ النهار، ورجوتُ أن لا أمرض.

ليلة الاثنين، الخامس من ذي القعدة الحرام، عند مُنتصف الليل ركبنا، ولساعتين بقيتا للغروب ترجلنا في صحراء لا يرىٰ فيها إلّا الرمال. وبقينا في هذه الصحراء إلىٰ وقت السّحر، ولساعتين بقيتا لانبلاج الصبح تحرّكنا، يوم الثلاثاء، السادس من هذا الشهر الغروب تقريباً، ولمّا وصلنا إلى المنزل، توقّفنا فيه قليلاً من اللّيل، ثم تحركنا لساعتين بقيتا للأذان. ماذا أقول وكيف أصوّر قلة الماء وحرارة الجوّ؟! أسألُ الله أن لا يتعرض المسلم للهلاك في هذه الصحراء القاحلة، التي لا ماء فيها ولا زرع.

يوم الأربعاء وصلنا إلىٰ مكان كانت فيه عدّة آبار، إلّا أنَّ ماءها كان مالحاً. وهنا أيضاً ذُكِرَ أنّه لا مجال للحصول على الماء حتىٰ منازل ثلاثة قادمة، فملئتِ القدور ماءً، ويوم الخميس والجمعة وليلة السبت لم يكن هناك ماء. ولأنَّ الجمالين لم يكونوا وصلوا بعد، ضُرِبَ الطبلُ في أول تلك الليلة وتحركنا. بعض المشاة كان يبدو عليهم أنهم علىٰ وشك أن تُقْبَضَ أرواحهم. وفي ذلك المنزل أيضاً بدا أحدهم وهو من أهل شميران مريضاً فتوفي، وبعد مشقة كبيرة حصلنا علىٰ قِربة من الماء، ودُفع تومان واحد وعشرا التومان كمقدمة لتغسيله، ثمّ دُفِنَ المسكين في تلك الصحراء بشكل من الأشكال.

ركبنا وسرنا ساعة أو اثنتين حيث جاء كل جمّال حاملاً الماء لرئيس القافلة. وكانت في هذه الليلة نوبة واحدة لأخذ الماء بشكل لا يمكن أن يذكر بالكتابة. وبحمد الله تعالىٰ فقد وصل الماء واستقرت أرواحنا. العجب من هذه الجمال التي ليس لها ماء ولا عَلَف، وتسير النهار بطوله هُنا!

ثلاث ساعات بقينَ للغروب، وصلنا إلىٰ بئر الماء التي قالوا عنها: إنها تحوي ماءً حُلواً. في الصحراء الأحجار والصخور تحت الرمال، فإذا أردوا أن يغرسوا مسامير حديدية فيها من أجل ربط أطناب الخيام تحطّمت تلك المسامير. فكان لابد من ربط سرادق الخيام بالحجارة. كلما أزيل الرّمل تكشّفت الحجارة من تحتها. ويقولون: إنَّ في هذه الصحراء مئة وثمانين بئراً، وإنّها من عمل الغيلان! ويبدو أنّ الأمر هو كما يُقال، ذلك أنّه ليس بمقدور البشر أن يحفر في الصخر. ويبدو كذلك أنّ هذه الصحراء مخلوقة من الصّخر. علىٰ أيّة حال سحبوا بعض الماء، والماء هنا حلوٌ، إلّا أنَّ لونه أصفر كالزّعفران؛ وذلك من كثرة أوساخ الجمال وسقوطها فيه.

بعد مضيّ ساعتين من اللّيل أعلن نقيب القافلة أنّه لا وجود للماء في المنزلين القادمين. وعند السحر ركبنا وكانوا يسيرون فيها أظنّ أربع عشرة ساعة أو خمس

عشرة ساعة في اليوم.

نحو جَبَل:

يوم الثاني من ذي القعدة الحرام، خرجنا من كربلاء، ويوم الجمعة السادس عشر وصلنا جَبَل. وفي هذه الأيام لم يُشاهد سوىٰ تُراب الأرض والسّماء. قبل وصولنا إلى الجبل بيوم واحد كانت هناك قلعة، وكانت هناك مزرعة للذرة. ولأجل تناول الطعام، توقفنا هناك ساعة أو اثنتين وشربنا فنجاناً من الشّاي، وبعد أن تزودنا بالماء ركبنا. ولساعة بقيت للغروب نزلنا؛ ولأنّ هذه المنازل ليس لها اسم مُعيّن، لم يذكر هنا.

الجمعة السادس عشر، لخمس ساعات بقين للغروب وصلنا «جَبَل» لنقضي فيه ليلة السبت السابع عشر ويوم السبت السابع عشر، جاء (الامير محمد خان) ملك «جَبَل» إلى الحجيج وزار مكانهم، وقد كان أنيقاً جدّاً في هيئته، وقد شَدَّ لفرسه لجاماً من الذّهب، ولبس هو قباءً غُجراتيّاً مُذَهَّباً. وأمّا غِلمانه فكانوا مُزينين تماماً ببنادق ذات محاجل فضيّة، وجلسوا خارج الخيمة. وبعد أداء التشريفات جلس هو وسط الخيمة، فيما جلس جميع رجاله في الخارج. وكعادة الأعاجم حيث يجب على الخادم أن لا يجلس قرب المخدوم، ولم تكن هنا من تلك التشريفات والمراسيم. وكانت لديه خمسة مدافع. وفي كلّ ليلة يطبخون عِدّة جمال في معمله لإطعام رجاله وعُمّاله.

ليلة الأحد، الثامن عشر وليلة الاثنين التاسع عشر، وبعد مضيّ ساعتين على النّهار، ركبنا، فسِرنا حتىٰ ساعة بقيت للغروب، ومن كربلاء وحتىٰ جَبَل لم يلُح لنظرنا جَبَلٌ على الإطلاق، ما عدا أرض مستوية وتراب ناعم لا غير. كانت ثلاثة من المنازل التي مررنا بها عبارة عن أرض رملية، ورمالها كانت حمراء، ويُعرف هذا النّوع من الرمل برمل الصياغة حيث يُنَظَّف به الذهب والفضة. كانت منطقة جَبَل التي تكاد تكون كلّها أرضاً جبلية، تحيط كالسور بهذه الصحراء

المترامية، وفي بعض الاماكن كان الجبل يبعد عن مثيله مقدار مئة ذراع لا غير. ولما رجعتُ ثانية من هناك كان يبدو أن سوراً كبيراً يُحيط بهذه الصحراء.

ليلة الثلاثاء العشرين، لأربع ساعات بقين للغروب، وصلنا إلىٰ قرية يُسمونها (عربان مستة جدّة). ونزلنا خلف حائط بستان، ثم ردّد نقيب القافلة ثانية صوته الكريه قائلاً: اِحملوا معكم ماءً كثيراً، لأننا لن نحصل على الماء خلال الأيام القليلة القادمة.

ليلة الأربعاء، الحادي والعشرين ركبنا من مستة جدّة لستّ ساعات مضين من الليّل، ولأربع ساعات بقين للغروب أصبحنا في صحراء يدعونها (غـرالية). وعلىٰ بُعد فرسخين بدت لنا منازل. كانت هنا أرض الأمير محمد. وبعد يومين آخرين يخرجون من أرض محمد ويدخلون أرض حربي[٢].

ليلة الخميس، الثاني والعشرين من ذي القعدة الحرام، بعد طلوع القمر، تابعنا المسير. حفظنا الله بفضله وسلّمنا من كلّ سوء خلال مسيرنا في هذا الطريق؛ لنصل مقصدنا إن شاء الله بسلام.

من ليلة الخميس، الثاني والعشرين وحتىٰ ليلة الأحد الخامس والعشرين، لم يكن هناك ماء في منازلنا التي مررنا بها. يوم الأحد، وفي أثناء الطريق، وُجِدَت بئر ماء، فأخذوا من مائها الذي كان مُرّاً ومالحاً، بعدها لم نجد ماءً في المنازل الأخرىٰ حتىٰ يوم الثلاثاء، السابع والعشرين، حيث وُجِدَت بئر ماء أخرىٰ. وكانت تكثر في هذه الصحراء أشجار أُمّ غيلان، وكان يُظَنُّ أنَّ هذه الأشجار مزروعة باليد، وكلّها مُرّتبة ومزروعة علىٰ شكل صفوف ثابتة. وأيضاً كانت هناك بعض المزروعات، والتي تُدعىٰ (الدّفلى). وكلّما أمطرت اخضرَّت جميعها. وكان أحد الحجّاج وهو من جرجان، والذي كانت امرأته في نفس المحفّة التي كان شخصنا فيها، وقد تخلّف يوم الأحد عن القافلة، وعندما نزلوا في الليل عُلِمَ أنّه بقي في الصحراء. فبعثنا أحدهم للبحث عنه، فجيء به صباح يوم الثلاثاء. وبعد

قدومه علَمنا أن اثنين من العرب الفرسان وثالثاً كان راجلاً سألوه: يا حاج! لِمَ تخلّفت عن القافلة؟ فأخبرهم المسكين ـ والذي كُتِبَ له أجلٌ جديد ـ أن بعيره لا يستطيع السّير. فأجابوه: إذا أعطيتنا نقوداً فسنحمل لك متاعك. وعلىٰ أيّة حال أنزل الفرسان الرجل المشار إليه من علىٰ بعيره، وحملوا متاعه علىٰ بعيرهم، وتحرّكوا ببطء شديد حتىٰ غابوا عن أعين الحجيج، ثم أنزلوه، وكان معه (٦٠) توماناً من النقود فأخذوها منه واقتسموها بينهم، وأخيراً فكّروا في قتله، ولمّا احَسّوا منه عجزاً شديداً اِنصرفوا عن قتله، ثم ضربوه ضرباً مُبرحاً، وأخرجوا ونهبوا ما تحت ثيابه، وبعد ذلك قالوا له: اِذهب من هنا إلىٰ حيث شئت. فقضى الحاج المسكين ليلته في تلك الصحراء بالبكاء والعويل حتىٰ طلوع النهار. بقي الحاج علىٰ هذا الحال إلى الظهر حتىٰ عثر عليه الرجال الذين خرجوا للبحث عنه، فأركبوه وهو في حالة يرثىٰ لها وأوصلوه إلىٰ قافلة الحجيج.

يوم الثلاثاء، السابع والعشرين، وصلنا رأس البئر، فملأنا الأواني ثانية بالماء، ثم ركبنا، ويبدو ـ إن شاء الله وبمساعدة الأئمة الاطهار عليهم السلام ـ أنّنا سنصل بعد يومين موقع الإحرام.

يوم الاربعاء، الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام، تحركنا بعد أداء فريضة الصبح، ولساعة بقيت للغروب وصلنا المنزل، وأمّا الماء وإن كان حُلواً ولكنه ليس ماءً مُستساغاً جداً.

يوم الخميس، التاسع والعشرين، تحركنا بعد فريضة الصّبح، فلاحت لنا صحراء مليئة بأشجار أُمّ غيلان، وبقُدرة الله تعالىٰ كانت تبدو وكأنّها مرتّبةٌ من قِبل بستانيّ. كان قِسم من الصحراء يبدو وكأنّه كالبستان. وكنّا مستمرين في المسير. ليلة الجمعة غرة ذي الحجة، أنْبِئنا بأننا سنصل غداً (وادي عقيق).

ليلة السّبت، الثاني من شهر ذي الحجة الحرام (١٢٩٧) وصلنا المحرم عند مُنتصف الليل. كان الجو لطيفاً تلك الليلة. وكان الغلمان والرجال الذين معنا، قد

علّمهم صِهْرُ السّيد حاجي آخوند آداب الإحرام، حيث أحرموا في وادي عقيق. وبقينا في الإحرام ثلاثة أيام.

يوم الأحد، الثالث من شهر ذي الحجة وصلنا (وادي ليمو). وكانت تلك البساتين موجودة هناك. ولم تَلُح لنا بيوت مسكونة في تلك المنطقة التي كان فيها الطريق كلّه من الوديان، أخذنا كمية من اللّيمون والنارنج، واللّيمون الحامض هناك هو نفسه الذي يُعْصَر في شيراز. عرب البادية لا يعرفون شيئاً عن اللّيمون الرّيان.

مكة المعظّمة:

الاثنين، الرابع من الشهر، وصلنا علىٰ بُعد فرسخ واحد إلى الاسفل من الوادي. وفي هذا اليوم لأربع ساعات بقين للغروب، بحمد الله وصلنا مكّة المعظمة. وعلىٰ بعد فرسخين كانت توجد هناك بئر مشهورة باسم (بئر الإمام الحسن عليه السلام). ويبدو أنَّ جبل النور علىٰ بعد نصف فرسخ.

ليلة الخامس من ذي الحجة، جاءوا بقرب ماء من بئر زمزم، فاغتسلنا غُسل الطواف، ثم تشرفنا بالحرم الشريف. وبعد أداء الطواف، أدّينا السعي بين الصفا والمروة، وعندما رجعت إلى المنزل، كان بعضهم يقرأ المناجاة. ومن شدة الحرّ والتعب فإنني لم أتناول العشاء، فقد سقطت على الفراش لمدة يوم وليلة كالمصعوق. ثم تحاملتُ علىٰ نفسي بالرغم من ذلك وتشرّفت في الليل بالذهاب إلى الحرم...

والبيت الذي كان قد كُرِيَ لأجلنا لم يكن فيه مجلس للخدم، فشاهدنا البيت ثم غيّرنا المكان، ثم جئنا إلىٰ بيت آخر يعود لأحد الأشراف القدماء والذي يُدعى (الشريف مهدي). أعوذ بالله من الطابق العُلوي لهذا البيت، فللوصول اليه يتحتّم صعود (٥٦) دَرْجَة بحيث ينقطع نفس الشخص من التعب...

مع كلّ المشقة كنا نتشرف بزيارة الحرم الشريف مرتين في اليوم، مرة في

الصباح ومرّة في الليل. وفي كلّ مرة من المرّات الثلاث[٣] كنّا نؤدي الطواف ثلاث مرّات أو مرّتين.

نحو عرفات:

ليلة الجمعة، الثامن من الشهر، اُشتُهِر بين السادة من أهل السنة أنَّ اليوم هو يوم عرفة. والحمد لله رحل الجميع إلىٰ منىٰ. ليلة الجمعة كان الحرم الطاهر خالياً. فاغتنمنا الفرصة هذه الليلة، وانشغلنا بالطواف حتى الصبح تقريباً، والحمد لله، كنّا نُقبّل الحجر بكلّ قلوبنا. وأدّيتُ الطواف خمس مرات، وكلّ طواف سبعة أشواط. الحمد لله الذي أنعمَ علينا بهذه النعمة، حيث اغتسلنا مجدّداً صباح يوم الجمعة الثامن من الشهر، وتشرّفنا بالحرم، ثم لبسنا الإحرام تحت ميزاب الرّحمة، ثم ذهبنا إلىٰ عرفات... وفي الظهر أدّينا الوقوف في عرفات، وانشغلنا بالدعاء حتى الغروب. وفي الليل ركبنا وجئنا إلى المشعر. فجمعنا الحصىٰ، وكان أهل السُّنة قد ذهبوا إلىٰ منىٰ. وفي الصباح بعد طلوع الشمس جئنا إلىٰ صحراء منى، وأتممنا رمي الجمرات، ثم قدّموا القرابين. لم يكن بالإمكان الذهاب إلىٰ مكة المشرفة لأجل الطواف.

منىٰ:

ليلة الحادي عشر والثاني عشر قام السادة من الحجاج الشاميين والمصريين بألعاب نارية لطيفة، كلٌّ من جهته. كانوا قد نشروا ذلك علىٰ جبل باروط[٤]، وكان انطلاقها شيّقاً وممتعاً. وقد انشغلوا بالألعاب النارية لمدة ثلاث ساعات بل أكثر من ذلك. وفي اليوم الحادي عشر رجع السادة إلى مكّة. أنا كذلك جئتُ إلى المدينة وأدّيت طواف الحجّ وطواف النساء، ثم رجعت. وبقينا ليلة الثاني عشر كذلك، وبعد ظهر اليوم الثاني عشر ذهبنا إلىٰ (مسجد الخيف) وأدّينا الصلاة، ثم عُدنا إلىٰ رمي الحجرات ورجعنا بعدها إلى مكّة. وفي اللّيل، وبالرغم من التعب والكلل، ذهبنا إلىٰ بيت الله وأدّينا الطواف، وسألنا الله تعالىٰ أن يُجيب دعوة

السائلين ويعطيهم حوائجهم المشروعة في الدنيا والآخرة إن شاء الله .

كان الجوّ في منىً رديئاً ، وقد توعّكت صحة الكثير من الحجيج . ليلة الثالث عشر اُبتليتُ بالحُمىٰ ووجــع في العظام ، واستمرّت الحمىٰ ثمانية أيام . إضافة إلىٰ سوء حالتي العامة بحيث لم أستطع التحرّك أبداً . بحمد الله تعالىٰ نزلت رحمته ، فقد استعدْتُ صحّتي ، وتشرّفت بزيارة الحرم ليلاً مع ما كان بي .

في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر ، تحسّنت حالتي قليلاً ، فتشرفت بزيارة حضرة أبو طالب والسيدة خديجة الكبرىٰ وعـبد المـطّلب وعـبد مـناف والسيدة آمنة والدة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم تشرفت بزيارة الحرم كذلك في الليل مع ما كان بي ، ولم أستطع الطواف أكثر من مرّتين . وفي اليوم الخامس والعشرين من ذي الحجة ، تشرفتُ عصراً بزيارة الحرم الشريف ثم ركـبنا وجـئنا إلى المكـان الذي يأخذون منه الناس إلى العُمرة والمعروف بـ(الشيخ محمود) ، علىٰ أمل أن نـركب ونسير غداً . ثم تبيَّن أنَّ هذا العربي من آل حرب لا يملك أيَّ بعير .

نحو المدينة:

لساعة واحدة بقيت للغروب من يـوم الاربـعاء ، السـابع والعـشرين مـن ذي‌الحجة . تحركنا من موقف (شيخ محمود) وركبنا بعيراً من آل حرب ثم سرنـا . نعوذ بالله من هذه البُعران التي تسير مقدار فرسخ واحد كلّ ثلاث ساعات . قريب طلوع الصبح وصلنا إلى (وادي فاطمة) . كان فيه ماء يجـري . ويبدو أنَّ ماء العين المذكورة حارٌّ لدرجة كأنّه مَغْليّ .

لثلاث ساعات بقينَ للغروب من يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر المذكور ، ركبنا ثم سِرْنا ليلة الشتاء بطولهـا حتىٰ انبلج الصَّباح . فَلم يكن بإمكاننا تناول العشاء ، ولا كان بالإمكان أخذ قسط من الراحة .

وبعد أداء صلاة الفجر ركبنا ثانية . وما إن انقضت ثلاث ساعات حتّىٰ وصلنا إلىٰ منزل آخر . كانت تلك الجِمال المنهكة تماماً تسـير ثمـاني عـشرة سـاعة . وفي

الساعة التاسعة من تلك الساعات وصلنا إلى منزل (بئر طفلة)، وكانت هناك بعض البيوت. ويوجد هناك بطيّخ أيضاً، إلّا أنّه لم يكن من النوع الجيّد.

في يوم الجمعة، التاسع والعشرين من ذي الحجة، ركبنا ثم سِرنا، وعند الغروب ترّجلنا للصلاة، ثم أقمنا الصلاة. أستجير بالله من الجمّالين، إنّهم مجموعة من الغلمان السّود، الذين يتسببون في جَلْب المصائب على الحجيج، لا يَدَعون الجَمَل يرفع قدماً عن قدم، يصيحون على الجميع ويصرخون: شوَيْ شوَيْ. لأربع ساعات مضينَ من الوقت، نزلنا. وعند وقت صلاة الصبح نزلَ كذلك المطر. ومع مرور عدة أيّام على الشتاء، لا يمكن ارتداء شيء أبداً. حتىٰ في داخل المحفّة كُنّا نَعرق. نعوذ بالله من الصّيف إذ لا يُعْلَم ماذا يحصل للناس!

يوم السّبت غرّة شهر محرّم الحرام ١٢٩٨، نزلنا في (بئر هندي). كانت هناك بعض الآبار وقليل من البيوت المبنيّة من القَصَب. عند الغروب من اليوم نفسه ركبنا، وعند انقضاء ساعة من اللّيل توقّف الحجاج؛ لأن الطريق كان موحّلاً ولا يمكن السّير فيه، فَصَفّوا الجمال واحداً بعد آخر، وبمشقة كبيرة سِرْنا هذه الليلة حتىٰ صلاة الصبح. بعد أن أقمنا الصلاة ركبنا. ولأربع ساعات بقينَ للغروب وصلنا منزل (رابغ) عند ساحل البحر. كُنّا لعشرين ساعة كاملة في المحفّة، جائعين، دون قوت أو غذاء. منزل (رابغ) تكثر فيه النخيل، وفيه قلعة، وهناك جنود كانوا فيه رافعين عَلَماً، وبعض المدافع كذلك توجد في هذه القلعة. يوجد اللّيمون والنارنج كذلك في هذا المكان، ولم يبقَ للحجاج إلّا التعب والمشقة...

ليلة الأحد الثاني من شهر محرّم، لثلاث ساعات بقينَ من الوقت ركبنا من منزل (رابغ)، وأدينا فريضة الصبح خلال الطريق، ثم ركبنا ثانية. وفي العصر نزلنا لأداء فريضة الظهر والعصر، ثم ركبنا ثانية حتىٰ سبع ساعات مضينَ من اللّيل، سِرْنا باستمرار حتىٰ وصلنا إلىٰ منزل (بئر عثمان). كانت هناك بعض آبار الماء في هذا المنزل. لا أحد يخطر بباله أنّ كلّ واحد منّا ما ظَلَّ راكباً إحدىٰ وعشرين

ساعة! ومن قِلّة الجمال والحركة البطيئة للبقية الباقية منها، فقد كانت معاناة الحجّاج بشكل لا يمكن وصفه في هذه السطور. الكلّ مُتعب وحَيْران ودون عشاء، والجميع أصيبوا بالدهشة خاصة المشاة منهم!

وبعد مشقة وعناء ركبنا ثانية، وكان الركوب المذكور في يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرّم الحرام. كان الطريق اليوم كلّه أودية مُحاطة بأشجار أُم غيلان من طرفيها. ووقت صلاة العصر، نزلنا، وبعد أداء الواجب ركبنا. لثلاث ساعات مضينَ من اللّيل، وصلنا ليلة الاربعاء الخامس من الشهر. كان الحجّاج الشاميّون ساقطين. وكانت الجمال كلّها سائبة خلال الطريق بشكل لا يمكن وصفه.

وفي منتصف تلك اللّيلة قام الحجيج الشاميّون بالطّبخ، ثم تحركنا وقت أذان الصبح، وبقيَ الحجيج كلّهم على الأرض. هذا المنزل الذي يُعرَف بـ(أبو زجاج)[٥]، ويُقال (بئر قچي) و(شيخ علي) كذلك، ويقولون: إنَّ أهل هذه القرية كلّهم من الشيعة، هذا المنزل تكثر فيه النخيل، وفيه قناتان أو ثلاث للماء الجاري أيضاً... قضت القافلة أربع ساعات علىٰ هذا المنوال، لقد تحمل الحجّاج المساكين الكثير من الأذى علىٰ يد هؤلاء الجمّاليين، كان لابدّ من الإتيان تدريجيّاً بالجمال السائبة، ثم ركبوا. تحركنا من منزل اليوم وهو (بئر قچي)، وقطعنا الطريق كلّه خلال الوديان. كان هناك قليل من الاماكن العامرة، وهناك الكثير من النخيل علىٰ سفوح الجبال، كما كانت فيها مياه جارية جيّدة. مما جعله مكاناً لطيفاً وجميلاً جداً.

الخميس، السادس من الشهر، لأربع ساعات مضينَ من اللّيل، وصلنا منزل (بئر قچي) وكان الماء يخرج من تحت أرض قچي. وفي الساعة الثامنة تناولنا الطعام ثم نمنا. وعند انبلاج الصبح، تحرّك الحجيج الشامي وكان السّيد صاحب السّمو حسام السلطنة دام اقباله العالي قد تحرّك معهم، وبقي هُنا الأمير ابو النصر ميرزا[٦] مع متاعه. بعد انقضاء ساعتين من النهار، ذهب أحد الحجّاج إلىٰ بستان

كان هناك لكي يأتينا بالأنباء، ولحقه بعض المسلمين إلى المكان المشار إليه فوجدوه وقد أخذ كلّ شيء عنده فبادروا لإنقاذه منهم ومما يعاني من الآلام، وعلم أنه لو لم يذهبوا هناك لقُتِلَ المشار إليه. تصوروا إلىٰ أيّ حَدّ وصل الحقد والعداوة عند هؤلاء ضدّ (الشيعة)، إذ لم يتورّعوا حتىٰ عن قَتْل مساكين كهذا الحاج!

أربع ساعات مضينَ من يوم الخميس، ركبنا من منزل (بئر قچي) وسِرنا. مع حساب هذا اليوم بقيَ لنا منازل ثلاثة أُخرىٰ حتى المدينة المنوّرة. هذا هو منزل (بني الحرين). قَسَمَ الله الرحمن لنا الوصول بسلامة وبركة إلى تلك المدينة المباركة والتّشرّف بها وزيارتها. مضت أربع ساعات من ليلة الجمعة من محرّم، وصلنا منزل (خيام). اسم هذا المنزل كما يبدو هو (عكّام)، فاذا وُجِدَ هنا أيّ غلط أو اشتباه فالمُقصِّر في هذا هو الرّاوي.

صباح الجمعة السابع من محرّم ١٢٩٨، تحرّكنا بعد طلوع الشمس، ولساعة ونصف الساعة بقيت للغروب، نزلنا لأداء صلاة الظهر والعصر، ومع كون الصحراء كلها مملوءة بالأشواك، إلّا أنّها صحراء نابضة بالحياة والجلال إلىٰ حَدّ لا يوصف. وقد كانت هناك بعض الاشجار التي لا تحتوي أوراقها على الاشواك، فسألنا عنها، قالوا: هي أشجار يخرج منها الصّمغ فيصنعون منه دهن البلسان. كان جذع البعض منها سميكاً جداً، ولها أوراق صغيرة خضر كأوراق الصَّعْتَر.

وعلىٰ مسافة نصف ساعة أُخرىٰ من المسير، وجِدَتْ بئرٌ وأشجار النخيل تملأ المكان في الصحراء. ويبدو أنّنا سنصل إلى المنزل الآخر بعد انقضاء أربع ساعات من اللّيل. علىٰ أي حال فإنّ هذه الجِمال الضعيفة المُتْعَبة وكلاب الجمال السود هذه سارت ببطء شديد جداً حتىٰ أنّنا وصلنا إلى الحجيج الشامي بعد أذان الصّبح، وكانوا علىٰ وشك التحرّك. لقد ظلّ الناس المساكين جالسين في محفّاتهم عشرين ساعة كاملة. أعانَ الله المساكين السائرين مَشْياً حتى وكأنهم أوشكوا على الهلاك. وحتىٰ نَصْب الخيام، تكون الصلاة قد فات وقتها. مَنَّ الله على القُنصل

بشيء من الإنصاف حتى لا يجعلوا الحجيج رَهن هؤلاء السُّود الذين لا يـفقهون حديثاً ، وهذه الجمال النحيفة .

إنَّ منزل هذا اليوم ، السّبت ، الثامن من شهر محرّم ، يُقال له (بـئر مـاشي) ، ويبدو أنّه بقيت هناك ستّة فراسخ إلىٰ مدينة الرسول صلى الله عليه وآله . وفّقنا الله تعالىٰ لنكون في المدينة ليلة العاشر من المحرم ذكرى استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وصحبه . مَضَتْ أربع ساعات من ليلة الأحد التاسع من محرّم الحـرام ١٢٩٨ ، تـركنا (بـئر ماشي) راكبين ثم سرنا ، اللّيلة هي ليلة التاسع مـن المحـرم ، وعـند وقت فـريضة الصبح وصلنا مسجد (الشجرة) . وأقمنا فريضة الصبح في مسجد الشجرة ثم ركبنا ثانية . ولما سِرنا بعض الشيء ، جاء المستقبلون مُصطحبين معهم خَيّالة ، فاصطّف العسكر جميعاً ، وكانوا يعزفون الموسيقىٰ . ويؤدّون (الهوسة) مع أنَّ هذه الليلة هي ليلة عاشوراء ، لم يكن من المناسب ولا من اللاّئق أن تُعزف هذه الألحان . . .

المدينة المنورة:

وبعد أن سرنا شوطاً ، بانَتْ لنا قبة الحرم المبارك وهي قبّة خضراء ، مع منائر الحرم كذلك . وبعد شكر الله وحمده الذي جعل هذه النعمة العظيمة من نصيب هذه الأمة ، أدّيتُ سجدة الشّكر .

مضت أربع ساعات من يوم الأحد ، التاسع من محرّم ، حيث دخلنا المـدينة المنوّرة ، فنزلنا قُرب الحرم المبارك في بيت المـؤذّن (الذي هـو الخـطيب كـذلك) ، وسكنا في الطابق الأعلى الذي يطلُّ على بستان وعلىٰ جبل أُحد كذلك ، يالِصفاء المدينة وطيب هوائها! الحقيقة أنّها كالجنّة! إنَّ لهذه الجـبال جَمـالاً يَسـلب لُـباب البَشر! وبما أنّ الوقت الآن هو الشتاء فإنَّ كلّ شيء سينضُج؛ من أمـثال البـاقلاء والباذنجان والخُضَر كذلك والشبيه بالزّمرّد .

وبعد دخولنا المنزل تناولنا الغداء ، ثم اغتسلت ، وتـشرّفت بـعدها بـالحرم المبارك . فقبّلتُ الضريح المبارك ، وقرأنا الزيارة ، ومن ثمَّ تشرّفنا بحرم البقيع وزُرنا

ثم رجعنا أدراجنا. في الليلة الأولىٰ تشرّفنا بالحرم المبارك عن طريق باب الرّحمة. وبعد قراءة الزيارة قضينا في الحرم المبارك أربع ساعات مضين من اللّيل. كانوا قد أناروا جميع المنائر. وكانت تبدو جذّابة للناظر اليها من الزّقاق. إنَّ تلك المنائر التي كانوا قد أناروها هي علىٰ شكل ثلاث طبقات، وهناك ثماني منائر وفي كلّ طابق منها بالطّبع يضيء مئتا مصباح. وكانت تضيء الحرم المبارك كذلك مصابيح كثيرة. وكانت أصوات هذه المنائر تُسمع من البيوت أيضاً. وكذلك صوتُ عَزْف عالٍ.

وفي الحرم المبارك بعد صلاة العشاء مقابل مسجد النساء أمام منزل خواجات الحرم، جَلَسَ جمعٌ من الناس في حلقة ذكرٍ. ومجموعة أخرىٰ كذلك مقابل الحرم المبارك كانت مشغولة بالذّكر أيضاً، وكانوا يردّدون (لا إله إلّا الله) بلحنٍ جميل. والحقّ أنَّ ذلك المنظر كان ممتعاً للنّاظرين. لقد كانوا يردّدون هذا الاسم المبارك بطريقة متواصلة بحيث ينقطع نَفَسَهم فيغشىٰ عليهم ويسقطون على الأرض، وكان الآخرون من جماعتهم يمسحون أوجههم ورؤوسهم من عَرَق أولئك المغشي عليهم للتبرّك. وكان يُوجد في الحرم المبارك مقابل الضريح المبارك مَحْمَل رسول الله صلى الله عليه وآله ومحمل آخر.

صباح يوم الاثنين الذي كان يوم الاستشهاد أي يوم عاشوراء، بعد أن تشرّفنا بزيارة الحرم المبارك وقراءة الزيارة وزيارة عاشوراء، ركبنا العربة وتشرّفنا بمرقد (حمزة). وزُرنا المكان الذي تُحفظ فيه الأسنان المباركة، ومن هناك صعدتُ إلى الأعلىٰ وزُرْتُ باقي الشهداء حتىٰ وصلت قريباً من الجَبَل حيث يوجد مسجدٌ صغير وله محرابٌ كذلك. فدخلنا وصلّينا ركعتين. في هذا الجبل توجد شجرة نابتة من بين الصخور، وقيل: إنّها أُنزلت على خاتم الأنبياء. فصعدنا قليلاً حتىٰ وصلنا إلىٰ شقّ الجبل. وهناك أيضاً أدّينا الزيارة ورجعنا.

ليلة الثلاثاء، الحادي عشر من شهر محرّم الحرام ١٢٩٨ دخلنا من باب الرّحمة، وتشرّفنا بزيارة الحرم المبارك، وقرأنا زيارة النبي صلى الله عليه وآله والصّديقة الطاهرة

فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ وجئنا قرب عمود التوبة وصلّينا وقرأنا كذلك الدعاء الخاص بالعمود ورجعتُ. صباح الثلاثاء، الحادي عشر تشرّفنا بالحرم الشريف من باب جبرئيل. وبعد الزيارة جئنا إلىٰ (بيت الاحزان). وأقمنا مجلس العزاء، وبعد الاستماع إلىٰ ذكر المصيبة... قرأنا زيارة السيدة فاطمة بنت أسد في مكانين، الأول في البقعة التي تقع خلف البقيع، والشيخ أبو سعيد مدفون هناك كذلك، فقرأنا الزيارة، والثاني في الحرم المبارك للإمام الحسن عليه السلام، وقرأنا زيارة السيدة فاطمة بنت أسد ـ سلام الله عليها ـ ورجعنا إلى البيت، وبعد تناول الغداء تشرّفنا بزيارة عبد الله عليه السلام والد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. قرأنا الزيارة ثم رجعنا.

ليلة الأربعاء، الثاني عشر من شهر محرّم، بعد صلاة العشاء، تشرّفَ السادة بزيارة الحرم المبارك، وبعد زيارة سيدنا خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله والصّديقة الطاهرة عليها السلام رجعنا إلى البيت. صباح الاربعاء تشرّفنا بالدخول إلى الحرم المبارك من باب جبرئيل، ومن هناك ذهبنا إلى البقيع وقرأنا زيارة أئمة البقيع. ورجعتُ إلى المنزل.

صباح الخميس، الثالث عشر من محرّم تشرّفتُ بزيارة الحرم المبارك عن طريق باب جبرئيل، وبعد الزيارة ذهبت إلى البقيع وزُرت أئمة البقيع عليهم السلام وعند الرجوع، رأيت الحجّاج خلال الزّقاق وقد وصلوا حديثاً، فجئتُ إلى البيت.

وفي ليلة الجمعة الرابع عشر، وبعد الصلاة، تشرّفتُ بالدخول إلى الحرم الشريف عن طريق باب السلام، فقرأت زيارة خاتم الرّسل صلى الله عليه وآله والسيدة الصديقة الطاهرة عليها السلام ثمّ صلّيت بالقرب من عمود أبو لُبابة، ودعوتُ هناك ثم رجعنا...

صباح السبت، الخامس عشر من الشهر، وكالعادة تشرّفتُ بزيارة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله والصدّيقة الطاهرة عليها السلام، وبعد الزيارة رجعت إلى المنزل، ليلة الأحد وليلة الاثنين وليلة الثلاثاء الثامن عشر كذلك كنت كلّ يوم وكلّ ليلة ـ بحمد الله تعالىٰ ـ أتشرّف بزيارة الحرم المبارك، وعندما نقلوا مَحَفّة النبيّ صلى الله عليه وآله ومحفّة عائشة، لم يسمحوا كالعادة للحجاج الفُرس من الاقتراب من الضريح المبارك وذلك حتى

الساعة الرابعة. والعجب أنَّ هؤلاء الاشخاص الذين لا يتورّعون ولا يحتاطون من أيّ شكل من أشكال النجاسة، لكننا نرى معزهم متروكة وسائبة في الأزّقة، وفي الليل تذهب هذه الحيوانات إلىٰ بيت مالكها دون أن يفكّر أحد في سرقتها.

السّير نحو جدّة:

لقد تقررَّ أن يحرّك الشريف الحجاج القادمين عن طريق البحر يوم الثلاثاء. فحُملت الأمتعة ثم توقّفت العملية. وصباح يوم الاربعاء السابع عشر من محرّم الحرام، وبعد مضيّ خمس ساعات على القافلة، تحركن من المدينة المنورة وبعد مشقّة وعناء كبيرين استطعنا اجتياز الأزقّة والأسواق. وكانوا يوقفوننا في كلّ تحرّك مطالبين بالإتاوة. علىٰ أي حال خرجنا من المدينة، وتوقّفنا خارجها لكي يلحق الحجّاج بعضهم ببعض.

ليلة الاربعاء الثامن عشر من الشهر وهي الليلة الأولىٰ من ليالي منتصف الشتاء توقفنا خارج المدينة. وفي الواقع الجوّ هنا يشبه جوّ الربيع وهو مُنعش كثيراً. إنَّ صحراء وجبال المدينة شبيهتان بالجنّة، نسأله تعالى أن يمنّ علينا مرّة أخرىٰ بأن نأتي ونتشّرف بتقبيل عتبة ضريح هؤلاء الأعاظم بحقّ أولئك الاشراف المدفونين في هذه البقعة. إنَّ قُبْلة واحدة على العتبة الشريفة أنستنا كلّ مصاعِب الطريق والجمّالين السود.

صباح الأربعاء، ركبنا من خارج البّوابة، كان الهواء متغيّراً قليلاً. وبعد مضي قليل من الوقت، بدأت السّماء تمطر. وأمّا السادة الأشراف الذين كان أهل الحاج قد أكروا منهم الجمال. فقد ذكروا أنّهم لم يصلهم شيء من السيد حسام السلطنة، ولم يدفعوا نصف الأُجرة ورحلوا عن طريق الشام، وعلىٰ هذا قالوا: إنّنا سنمنع هذه الأميرة من الرحيل، وسنحتجزهم في المطر حتىٰ نأخذ مئة تومان. فجاءوا ومنعونا من السّير فقيل لهم: لِمَ تمنعونا من السير؟ فأجابوا قائلين: يُريدون إتاوة. فقال رجالنا: لقد دفعنا كامل الأجرة، وأعطينا خلْعَة كذلك. فأجاب المؤجرون:

لقد أعطيتم الأُجرة إلىٰ محمد الكائني[٧] وليس لنا. ورأيت الوضع سيّئاً، فقلتُ لرجالنا: اِرجعوا إلى المدينة إلى الوالي هناك وأنهوا المسألة مع الحكومة، واللّعنة علىٰ هؤلاء، سأذهب معَ حُجّاج جَبَل. سأعطي هذا الوصل إلىٰ والي المدينة ليأخذ النقود من الشريف. فلمّا رأىٰ أولئك أنّ هذه الأرض لا تقبلُ بذرهم، ولا مكان لحيلهم ومكائدهم، جاءوا يتوسّلون، فذهب كلّ الحجّاج الشيرازيين و«نصير المُلك» والآخرون جميعاً، فظلّت جِمالُ الشريف هذه التي أكراها لنا. وبعد المسير اشتدَّ نزول المطر، وأثناء سيرنا، صادفنا نهراً أمامنا، ولم يكن باستطاعة الجمال عبوره. فغيّرنا الطريق، ومعنا أحد الاشخاص يدعىٰ (كامل أفندي)، وهو يقول: إنني لستُ خادماً لإيران بل إنَّ القنصل ترجىٰ مني أن أُرافِق الحجّاج. إنّه رجل شاطر ولبيب. ولما غيّرنا مسيرنا قليلاً، صادفنا مجرىٰ نهر آخر قد تكون من أثر الفيضان. لا مناص من عبور النهر، مع أنَّ المياه تكاد تجرف معها الجمال. ومع مشقة وعناء كبيرين اِجتزنا النهر، وحتىٰ ساعة ونصف بقي من الوقت للغروب، كان الرّعد والبرق لا يزالان يقصفان، وكان الهواء كذلك ضَبابيّاً، ثم طلعتِ الشّمس، أقمنا صلاة الظهر والعصر ثم ركبنا. بحمد الله تعالىٰ وصلنا المنزل بسلام مع أنَّ عددنا كان قليلاً، أي نحن وخدَمُنا وسط هذه الصحراء والجبال. ولما وصلنا (قبة الرود)، كانت قد مضت من الليل ثماني ساعات. بعد الوصول ونَصب الخيام، جاءت عيال عبدالحسين خان قائد اللّواء للاعتذار قائلة: إننا لم نكن نعلم. فأجبتُها قائلة: بحمد الله سار كلُ شيء بسلام، لكن ما كنتُ أعلم أنّ شخصاً مثل نصير الملك إلىٰ هذا الحد يكون مقصّراً، حيث يترك العسكر ويذهب تاركاً القافلة دون أن يكلّف فيها حتى أربعة مسلّحين ليكونوا برفقتها، فيبعث قائلاً: إن شاء الله ينتهي هذا الأمر بخير.

مضت خمس ساعات من يوم الخميس العشرين من محرّم الحرام تحرّكنا من منزل (قبّة الرود)، ومع أنَّ السماء غائمة، إلّا أنّه لا يوجد مطر، وبعض الأماكن

اكتست أرضها ببساط أخضر كالزّمرّد.

مضت تسع ساعات من ليلة الجمعة، الحادي والعشرين من الشهر، وصلنا الىٰ منزل (بيراية). كان فيها بعض المنازل، وقد شوهد فيها كذلك بئر ماءٍ وغنمٍ وماعز. ست عشرة ساعة، سرنا خلالها ستة فراسخ، بسبب رداءة جِمال آل حرب هذه وبطئها في السّير. في يوم الجمعة، الحادي والعشرين، بعد مضيّ ستّ ساعات على القافلة، ركبنا. إنَّ طريق اليوم كلّه أودية وجبال. وتوجد بعض الممرات الضيقة التي اصطدمت المحفّات والهوادج بجبالها. وليس هناك جمال تسير. تصوّروا أنَّ قطاراً من النّمل يسير. لقد اصبتُ بنزلة شديدة وبدأ صدري يُؤلمني كذلك. وبقيتُ مستلقية في هودجي في حالة رديئة لا توصف.

كانت هناك الكثير من الأحمال تُنْقَل من (ينبع) إلى (المدينة)، وبعض الحجّاج الذين قدموا عن طريق البحر والذين نفدت نقودهم، ظلّوا في مكة المعظمة. واليوم شوهدوا يأتون عن طريق ينبع للتشرّف بالذهاب إلى المدينة. كانوا قد ذهبوا من مكة إلىٰ جدة، وعادوا عن طريق ينبع.

في ليلة السبت، الثاني والعشرين من الشهر، بعد مضيّ ستّ ساعات من اللّيل وصلنا إلىٰ منزل (بئر خلع)؛ يوم السبت، لخمس ساعات بقين للغروب، تحركنا من منزل (بئر خلع)، وفي الليل حيث لم نصل إلى المنزل بعد، سمعنا أصوات اللّصوص من جهاتنا الأربع. بعد ذلك عُلِمَ أنّه وخلال الطريق، سُرِق هِميان ابن الحاج عبدالهادي الاسترآبادي الذي يشتغل بالتجارة في بغداد، سُرِق من تحته مع صرّة ثيابه. كانوا يقذفون الحجارة نحو طاس المشعل الامامي لكي يطفئوه، حتىٰ يتمكّنوا من الولوج داخل صفوف الحجيج. وتشبه هذه العملية إلىٰ حَدّ بعيد تلك التي ينقلونها عن حسين كُرْد في الكتب.

هذه الليلة وبحمد الله تعالىٰ وصلنا بسرعة إلى المنزل. اسمُ هذا المنزل هو (بئر الحسان). وتقتصر العمارة هناك علىٰ بعض الآبار وبضعة منازل ودكّان أو اثنين،

ولمّا ذهب الحجّاج المساكين ليأخذوا قسطاً من الراحة، عَلَتْ أصوات تقول: لصوص، لصوص. لقد سرق اللّصوص إبّالة من حِمْل حسن خان نامي من أهالي شيراز، وأراد أن يُظهر شيرازيّته هُنا إذْ خرج في منتصف الليل يقفو أثر اللّصّ فضُرِبَ علىٰ أُمّ رأسه بالنّبوة وعادَ ورأسه كان مشدوخاً. وقد تبيّن أنَّ اللّصوص قد سرقوا الكيس الذي كان فيه مقدار من الرّز والطحين مع صُرّة ثيابه. وأمّا ما بقي له فهو رأسه المكسور.

ولأننا قد وصلنا إلى المنزل بسرعة، وبعد مضيّ ساعة علىٰ طلوع الشمس، تحرّكنا من منزل (بئر الشيخ) وبدأنا في السّير.

إنَّ صحراء اليوم عبارة عن أرض مُنبسطة لا ماء فيها ولا كلأ. إنَّ هذين المنزلَين، أي بئر الحسان وبئر الشيخ، لا يوجد فيهما ماءٌ حَسَن، فطعمه غير مُستساغ، وهو مالح المذاق كأنّه يحتوي على الزرنيخ. والمنازل التي في طريق مكة المشرفة كلّها كانت فيها مياه، وكان الماء فيها عذب طيّب. فلا معنى لأي عاقل يسلك غير هذا الطريق ويترك العسكر، ويُسلّم عقله إلى الجمّال. ما أُريدُ قوله: إنَّ الأسف والنّدم على الماضي لا يؤدّي إلىٰ نتيجة. إنَّ الظنَّ بالله المتعال هو أن تَنْقَضيَ الأيام القليلة الباقية بسلام كذلك.

مضت أربع ساعات من يوم الاثنين، الرابع والعشرين من محرّم، وصلنا إلىٰ منزل (مستورة). وانفصلت قافلة هندية قبل ساعتين أو ثلاث عن الحجاج الفُرس حتىٰ وصلنا. وارتفع صوتٌ من جهة الهنود. فعُلِمَ أنَّ الصندوق الذي يحتوي على الأوراق والمستندات وسبعمئة ريال فرنسي قد سُرِق.

الهواء في هذه الليلة بارد بحيث يميل المرء فيه إلى ارتداء اللّباس وإشعال النّار. بعض الاشخاص من أمثال الشريف وأخيه وكامل افندي وبضعة افراد آخرين، ومنذ رحيل السّيد حسام السلطنة هُم في خيمة الخَدَم. من الليل حتى الصباح هم مشغولون بشُرب الشّاي والشّيشة. وهناك أفراد يتناوبون في الحراسة. وقرّروا في

الصباح أن يتحرّكوا لساعتين بقيتا للغروب؛ لكي يصلوا إلى المنزل الآخر وقت صلاة الصبح، علىٰ أساس أنّه لو حدث نقصٌ في الأحمال أثناء اللّيل فإنَّ الجمّال سيتحمّل المسؤولية، هذا في الوقت الذي كان قد سُرِق كيس ابن الحاج عبدالهادي من علىٰ دابّته، ولم يُعَوّضه أحد عن ذلك.

الماء في (مستورة) مُرٌّ إضافة إلىٰ كونه مالحاً، وقد كان طعم العشاء مُرّاً، فلم يكن هنالك بُدٌّ من ذلك إذ قلتُ لهم: بأن يتناولوا الغداء ويصلّوا صلاة الظهر والعصر وأن يركبوا بعدها.

أربع ساعات بقينَ للغروب، في يوم الاثنين، الرابع والعشرين من محرّم الحرام، ركبنا من منزل (مستورة) وسرنا نحو منزل (رابغ). صحراء هذا اليوم عبارة عن أرض منبسطة كذلك، وكلُّ تحرّكنا من المدينة إلى الآن هو باتّجاه القبلة. في النهار مع كون السّماء غائمة، إلّا أنّه مضت بضعة أيام من الجدي. مُقدّم الهَوْدج مائل إلى الأرض. مع أننا لم نرتدِ إلّا واحداً، فالعرق يجري من جسمنا.

عند وقت صلاة المغرب نزل الحجيج يقيمون الصلاة، ثم ركبوا، وبعد مضيّ ثماني ساعات من ليلة الثلاثاء، الخامس والعشرين من الشهر، وصلنا الأرض النَّخالة في (رابغ). بسبب وجود المياه أمامنا تعطّل الحجّاج. فتح الجمّالون السود البُلَهاء قيود جِمالنا وتركوها ترعىٰ حوالى ساعتين ونصف في الصحراء. لقد ذهبوا في جميع الجهات إلّا أنهم لم يجدوا طريقاً سالكة. وبعد مشقة وعناء اجتزنا الحاجز المائي وحتىٰ تمكّنوا من إيجاد الطريق ونصب الخيام، صار وقت صلاة الصّبح. أقمنا الصلاة وشربنا الشّاي.

في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر محرم، بقينا في (رابغ) ليلة الأربعاء السادس والعشرين، ووقت طلوع الشمس، وفي يوم الأربعاء، السادس والعشرين، ركبنا من المنزل المذكور. ولساعتين بقيتا للغروب نزلنا لأداء الفريضة، وبعد أداء الصلاة، نزلنا. وبعد مضيّ ساعتين من اللّيل، سدَّ الجمّالون

الطريق قائلين نُريد أن نفرّغ الحمولة. أرادوا أن يمنعوا ذلك. وبدأوا يخادعون مدّعين أنّهم ضلّوا الطريق. علىٰ أي حال فأيّ شخص له ذرّة من العقل والإحساس لن يُسلّم نفسه بيد جمّالين سود مجانين كهؤلاء. الحقّ أنَّ الكُتب التي ألّفها الناس حول ذَمّ وإهانة طريق الجبل هذا، التي تخيف كلّ من يقرأها لا تخلو من الصّحة والحقيقة.

وفي أثناء الطريق اِنْتُزِع الهِميان الذي كان تحت صاحبه في الهودج بعد قطعه. كان صاحبه المسكين يحِسُّ بأنَّ الهودج مائل، إلّا أنّه اعتقد أنَّ الجمّال يحاولُ شدَّه وتسويته. ثم عُلِمَ أن طرفاً من الكيس كان قد سُرِق. والعجب من أنَّ الدولة تعلم عِلْمَ اليقين كلَّ ما يجري من مَذلَّة للحجّاج. وإذا ما تَمَّ تقديم شكوىٰ أو احتجاج نتيجة ذلك، لا وجود للعدل هناك. الواقع أنَّ مجموعة من الحجّاج ظَلّوا أسيري هؤلاء الغلمان السّود وتحت رحمتهم. كلّما واجَهَ الحجيج مشكلة في طريق «جبل»، كانَ يوجد على الأقل شخص ما، يمكن سؤاله والحصول على الجواب منه.

علىٰ أي حال، بعد مضيّ عشر ساعات من ليلة الخميس، السابع والعشرين من الشهر، وصلنا منزل (قطيمة)، وتوقفنا نهاراً، ولثلاث ساعات بقين للغروب من يوم الخميس، السابع والعشرين، تحرّكنا من المنزل المذكور، وفي الساعة السادسة من اللّيل، أوقف الجمّالون الحجيجَ خلال الطريق قائلين: لقد ضلَلْنا الطريقَ. وبعد أن أبدوا قليلاً من الخداع تابعوا السّير، ولمّا ساروا مقداراً من الطريق، تجمّعوا كذلك وعلا صوت الصياح والضوضاء. قال أحدهم: هوذا بحر! وصاح الآخر: إنّه مُستنقَع! وبعد مدّة من التّأخير، عُلِمَ أنّه هو قليل من ماء المطر. كان أحد المسؤولين عن المشاعل قد تأخر في إيصال المشعل. لقد مُزِّق الهميان من تحتنا كما يظهر، وقد سُرِقَ ما كان في الهميان. كان قد بقي فرسخٌ واحدٌ حتىٰ منزل (خيط) عندما أُوقِفَ الحجيج قائلين لقد ضَللنا الطريق، يجب أن نتوقّف هنا. كلّ

الحجّاج اجتمعوا، أرادوا أن يُصرفوا هؤلاء الغلمان السود الأربعة عن ذلك، فلم يكن بالإمكان فعل شيء. فكان لابدّ من النزول. لم يكن هناك قدْر يكفي من الماء حتى للوضوء للتّهيؤ لصلاة الصبح. وبعد مشقة وعناء كبيرين أقمنا الصلاة علىٰ أي حال، ثم ذهبوا علىٰ بعد فرسخ وجاءوا بماءٍ وَحل وسخ كثيراً تسبح فيه كلّ أنواع الجراثيم. يالَها من مصيبة تلك التي يصبّونها علىٰ رؤوس الحجيج! الواقع أن ذلك لا يمكن تدوينه هنا.

في يوم الجمعة، الثامن والعشرين من الشهر، قضينا الوقت في صحراء لا اسم لها، ولأربع ساعات بقينَ للغروب من اليوم المذكور تحرّكنا وبدأنا المسير، لنرىٰ ما سيحصل هذه اللّيلة، هل سيوصلون الحجّاج المشدوهينَ إلىٰ جدّة أم أنّهم سيختلقون لُعبة أخرىٰ في هذه الصحراء. بعد مضيّ ساعة واحدة من الغروب، نزلنا لأداء صلاة المغرب. وبعد أداء الفريضة ركبنا، وفي الساعة السادسة، سُمِعَ صوت صياح يقول: إنَّ البعير قد سُرِقَ مع حِمْلِهِ. فخرجوا لاقتفاء الأثر، فلم يجدوا فرصةً لسرقة الجَمَل إذْ تركوه في البرية وهربوا، وكان الصندوق ملكاً للحاج ميرزا محمّد صِهْر الحاج محمّد صادق الأصفهاني التاجر المعروف. تحرّكت هذه الجِمال وسارت كَسَيْر النملة من الليل حتى الصباح. لأجل صلاة الصبح نزلنا أرضاً جميلة، فيها كلّ أنواع الورود والزروع، وكان يكثر فيها الخطمي الوردي والزّهور الصفراء. كانت الصحراء كالزمرد الأخضر بعد طلوع الشمس. ومع أنَّ الأرض هنا رَمليّة، فإنّه بقدرة الله نَبَتت كلّ هذه النباتات من خلال قطرتَيْن. ويبدو أنَّ المطر لم يهطل في هذه البلاد منذ أربع سنوات، والحمد لله فإنّه بسبب قدوم الحجّاج الميمون هذه السّنة هطلت أمطار كثيرة مفيدة.

بقيت أربع فراسخ حتى مدينة جدّة، جاء القُنصل للاستقبال. وقد أصرَّ كثيراً علينا للذهاب إلى القُنصلية. ولأنه لم يكن لديه عيال (زوجة) فلهذا السّبب لم أذهب. لقد أبدىٰ منتهى الأدب.

في جدة:

مضت ستّ ساعات من يوم السبت، التاسع والعشرين من محرّم الحرام سنة (١٢٩٨)، وصلنا مدينة جدّة. لقد نزلنا في طابق علوي من بيت حيث يُشاهَدُ البحر كلّه. هذه الليلة الوابور (السفينة البخارية) واقفٌ على البحر دون حراك.

ليلة الأحد، غرّة شهر صفر المظفّر (١٢٩٨) رأينا الهلال من السطح، وحمدنا الله لكوننا سالمين لحدّ الآن! نتمنّىٰ من حضرة الباري سبحانه أن يحفظ أرواحنا وتنجو من هذا البحر العظيم. يَعلم الله أين سنكون غرّة ربيع الأول. «اللهم اجعل عواقب أُمورنا خيراً بحقّ محمّد وآله».

صباح يوم الأحد، غرّة شهر صفر، جاء الحاج عبد الله ديرباج بالباخرة وقال: هذه السفن البخارية ليست جيّدة، فعلى الحجّاج أن يتوقفوا هنا عدّة أيام حتىٰ تصل سفينة جيّدة أخرىٰ. في كلّ عصر كنتُ أنظر إلى البحر بالمنظار. هذا هو تقدير الله، فأين أنا من جدّة والتفرّج على البحر؟! في الحقيقة أنّ الانسان يجهل عاقبة أُموره أين تؤول. لحدّ اليوم وهو يوم الثلاثاء، لم يكن أثرٌ للسفينة. في حين لا تزال السفن البخارية السبع مرابطة في مكانها السابق في البحر.

إنَّ بيوت جدّة كبيوت مكة المعظّمة. هذا المنزل الذي نسكن فيه حالياً، فيه ثمانون درجة سُلّم من الأسفل حتى السطح، والىٰ هذه الغرفة التي نقيم فيها هناك أربع وستّون درجة. ليومين متتالين تهبّ الريح هنا. وما دامت هناك ريح فإنَّ الهواء بارد بحيث يميل الفرد إلى ارتداء السترة. وبمجرّد توقّف الريح، يصبح الجوّ حارّاً. منذ اليوم الأول لدخولنا الجزيرة العربية، والذي كان في أوائل برج الميزان، وحتى الآن وهو الوقت الذي يقترب فيه من انتصاف الشّتاء، تُرىٰ هذه الحالة في كلّ وقت وفي كلّ مكان. إلى الوقت الذي يكون فيه هناك نسيم، فالجوّ جيّد، وليس حارّاً، ومتىٰ ما انقطع النسيم، فالجوّ يشبه جهنّم إلىٰ حدّ كبير. والآن ومع هبوب النسيم ليومين متتالين، إلّا أنَّ الماء ما زالَ بارداً داخل الجرار. عجّل الله في مجيء الوابور

إن شاء الله ووصوله. ما أجمل أن يعرف الانسان عاقبة الأمور! فبدل التأخير الذي تحمّلناه في جدة، ألَم يكن من الأجدر أن نقضيه في المدينة المنورة، التي هي في الحقيقة جَنّة عامرة تجدّد الحياة والروح في الإنسان؟! روحي فداك يا رسول الله صلى الله عليه وآله: أناشِد الله بحقّ ذلك العظيم أن يرزقنا التشرّف ثانية بزيارة ذلك الضريح المبارك الشريف.

عندما تحرّكنا من مكة المعظّمة باتّجاه المدنية الطيّبة، سلكنا طريق (فرع). وأمّا أسماء المنازل المذكورة هي: وادي فاطمة، عسفان، قطيمة، رابغ، بئر رضوان، أبو عاع، ريان، قصير، بئر ماشي، المدينة الطيبة. وأمّا الرجوع فكان عن طريق (السلطاني)، وذلك بحسب هوى الجمّالين والشّريف عديمي الإنسانية. إنَّ الميزة التي كانت في طريق (السلطاني) هي المرتفعات والمنخفضات التي فيه، إلّا أنّه من حيث الماء والجمال لا مقايسة بينه وبين طريق (فرع) على الإطلاق.

والمنازل التي مرّت بنا عند الرجوع من المدينة إلىٰ جدّة عن طريق (السلطاني) هي: قبّة الرود، عار، بئر حسان، بئر الشيخ، مستورة، رابغ، قطيمة، خيط، جدّة.

إنَّ مدينة جدّة مدينة كبيرة؛ وهي أكبر من المدينة الطيّبة. وقد وُضِعَتْ سَبعة مدافِعَ متجهّة نحو البحر وقريباً منه. كان هناك كلّ أنواع المأكولات في المدينة الطيّبة، في حين لا توجد هنا إلّا بعض الأشياء مثل النباتات الخُضريّة والنارنج. وأمّا البرتقال والليمون فيوجدان بكمية ضئيلة في السوق. وبالنسبة إلى الخيار الأخضر فهو علىٰ عدد الأصابع. وإن كان لا ينفع الندم ولا الحسرة، إلّا أنَّ التأخير هنا لو كان في المدينة لكانت تلك نعمة جزيلة. ما أسوأ أن نتوقّف قرب منزل واحد عن مكة المعظمة ولا يكون بالإمكان التشرّف بها...!

إنَّ ما يحزّ في نفسي هو أن أكون في منزل قرب مكة المعظمة ولا نُسْعَدُ بالتشرّف بزيارة الحبيب مرة أُخرىٰ. لَمْ يبدِ المرافقون أيّ هِمّة أو جدارة وإلّا كنّا

تشرّفنا بالزيارة. علىٰ أيّة حال، الآن أنا تحت رحمة طابق علوي في جدّة...

نحن بانتظار الوابور كلّ يوم. لقد توقّف العمل في وابور الحاج موسىٰ بسبب عدم رغبة الحجيج إليه، فكانت الأجرة في بداية الأمر ثلاثين ريالاً وأربعين ريالاً للشخص الواحد، والآن وصلت الاجرة إلىٰ خمسة عشر ريالاً واثني عشر ريالاً كذلك. ولأن الحجّاج تأخروا في جدة طويلاً، لم ينتبهوا إلى الثالث عشر من صفر، حيث تحرّك في يوم الخميس الثاني عشر من صفر (٨٣٠) شخصاً من الحجيج علىٰ وابور الحاج موسىٰ. حفظ الله الجميع.

نحن الآن ما نزال مقيمين في جدّة، حتىٰ نرىٰ ما يكون من التقدير المقدَّر، والحصول علىٰ إذنٍ من أم البشر للرحيل. ومن فرط النسيان لحدَّ اليوم وهو الثاني عشر من شهر صفر، لم اتشرّف بزيارة جدّتنا (حواء)، والآن وبعد التحقُّق في الأمر، ذُكِرَ أنّها قريبة من المنزل، فلم نجد بُدّاً من الذّهاب مشياً. وبينما كنّا نمرّ خلال الزّقاق، لَمحنا ساحة دارٍ ودهليز فَخْمَين كانا قد وُضِعَ فيهما كراسيّ ومقاعِد كثيرة، وقد وقف شيخٌ علىٰ باب الدار. فتقدّمنا وتفرّجنا ثم أردنا العبور. فأفهمنا الشيخ بالعربية أنَّ هناك أشخاصاً في الداخل. ومتىٰ أردتم التفرّج على الطابق العلوي، فذلك ممكن. وكانت معنا زوجة عبدالحسين خان قائد اللّواء، وأُخت سهام الدولة، ودخلنا إلى الطابق العلوي. كان الطابق العلوي قد دخل بعضه في بعض. وقد وضعوا المقاعِد هناك. كانت سيدة البيت وهي صاحبة البيت قد ذهبت في زيارة خارج الدار. كانت هناك ابنتان صغيرتان وبعض الإماء الحبشيات الحسناوات. قال الشيخ باللغة العربية: تفرّجوا علىٰ كلّ مكان جيداً. كانت بنايةً فاخرة. كان فيها حمّام جميل من المرمر. وقد بَنَوا قبّة كذلك كما هو متعارف لدينا. كانوا قد نصبوا زجاجاً. وهناك حنفيّة ماء بارد وأُخرىٰ للماء الحار آيتان من الخارج. كان الحمّام فاخراً جدّاً. سألتُ الشيخ: أين مولاك؟ أجاب: في السوق.

خرجتُ من هناك والمسافة طويلة حتىٰ بيت الجدّة. والهواء حارّ كذلك. علىٰ

أيّ حال وصلنا. قبر أمّ البشر، السيدة حواء عليها السلام علىٰ هيئة أو شكل ميزاب سحب من طرفيه إلى الأعلىٰ. وعند القدم توجد فتحة شباك حديدية، فقبّلنا وقرأنا الفاتحة، ثم طلبنا إذن الخروج. وتفصيل ذلك كما هو مكتوبٌ من قِبل السّيد العالي معتمد الدولة ـ روحي فداه ـ في كتاب «يوميات السّفر إلىٰ مكة المعظمة»(٨). وهذه البقعة هي محل السُّرّة المباركة. هناك بقعتان أُخريان كذلك بين تلك شبيهتان بقبر السيدة حوّاء حيث بُنِيَ حائط وعُمِّر المكان. ويبدو من الذي ذكره السّيد العالي في كتابه اليوميات أن أحدهم هو قبر عثمان باشا والآخر هو أحد أقرباء عثمان باشا. يالَهُ من عمل قبيح هذا الذي فعلوه حيث دفنوا آخرين مقابل جسد السّيدة! بعد الزيارة حصلنا على الإذن للخروج، ثم رجعنا.

بمجرّد الدخول إلى المنزل أخبرونا أنَّ الوابور قد وَصل، وإن شاء الله سنذهب الىٰ بوشهر. اليوم غادرَ وابوران وعادَ وابوران. وبما أنَّ اليوم هو يوم الجمعة والثالث عشر من صفر، فإنّه قد توقّفنا أربعة عشر يوماً في جدة. ليس لدينا عملٌ إلّا الهمّ والغمّ. الهواء حارٌّ جداً منذ عدة أيام وليال، ومع ارتداء لباس واحد وفي مكان عالٍ يتمّ الوصول اليه بصعود ستين أو سبعين درجة، إلّا أن العرق يجري باستمرار. الحمد لله علىٰ كلّ حال حيث هطل مطرٌ نافعٌ قبل وصولنا إلىٰ جدّة، وإلّا لا أحد يعلم ما كان سيحصل من قلة المياه خصوصاً وأنّهم يقولون: إنَّ المطر لم يهطل هنا منذ أربع سنوات، وكيف كنّا سنتحمّل كل ذلك التأخير؟!

اليوم، الحجّاج الذين تأخروا عَنّا عندما كنّا نغادر المدينة، وهم كانوا ما يزالون يدخلونها، جاء بعضهم عن طريق (ينبُع) والبعض الآخر عن طريق (رابغ) فراراً. لقد أعطوا ألف ريال إلىٰ مسؤول القافلة كإتاوة. وقد أخذ مسؤول القافلة الأموال وهرب. وفي (رابغ) سَدّوا الطريق أمام الحاج مطالبين إيّاهم بالإتاوة، وبما أنَّ هؤلاء الحجاج المساكين كانوا قد أعطوا أموالهم إلىٰ مسؤول القافلة فقد أوقفوهم هناك، وهرب البعض الآخر. ويبدو أنَّ الحجّاج الذين جاءوا عن طريق

(ينبع) قد قابلوا الشريف في (ينبع).

إنَّ الخُدَع التي أرادوا أن يمرّروها علينا أيام كنّا نخرج من المدينة، فقد مَرّروها على الحجاج المساكين. أنزل الله البلاء علىٰ رأس شريف هؤلاء، ويقيناً أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بريء من هذه الذريّة. العجب كلّ العجب من هذه الطائفة التي تقول: لا إله إلّا الله ولا يتورّعون أو يحتاطون من أيّ شكل من أشكال النجاسة، ففي نفس المكان الذي يتبوّلون فيه، يتوضأون على الفور ويسيرون حُفاةً فيه. هنالك أشياء غريبة تُشاهَد من هؤلاء. وقد بَنَوا دورة المياه بشكل لا يمكن تحاشي ترشيش الماء على الانسان. ومع عدم اكتراثهم وعدم تحوّطهم، فهم يدخلون حرم رسول الله صلى الله عليه وآله في حين كانوا يمنعون الفُرس المساكين عن الحرم!!...

الهوامش:

(١) بما أن هذه الرحلة طويلة، فقد اقتبسنا منها ما يخصّ الحج فقط.

(٢) المقصود هو «آل حرب».

(٣) وكذا في الأصل.

(٤) كذا في الاصل.

(٥) هكذا في الأصل.

(٦) ابو حسام السلطنة.

(٧) ربّما كان المقصود «الكاتبي»

(٨) تقصد «كتاب هداية السبيل» لفرهاد ميرزا.